الإمام
شهاب الدين القسطلاني
دراسة تعريفية

إعداد / صالح بن سليمان بن صالح العقيل

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدلله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد عليه وعلى آله وصحبه أشرف الصلاة وأتم التسليم، وبعد:

فإن الله ﷻ قيّض لهذه الأمة أمنةً يحملون شرعه، ويتعاهدون علمه وتعليمه، عاملين بحديث النبي ﷺ: (بلّغوا عنّي ولو آيةً) أخرجه البخاري [٣٢٧٤]، ومن عظيم رحمته سبحانه أن بسَط هذه العلم بسطًا بأيدي علماء أجلّاء، أفنوا أعمارهم تصنيفًا، وتهذيبًا، وترتيبًا لسنة النبي ﷺ ومن أولئكم الإمام شهابُ الدِّينِ أحمدُ بنُ محمَّدٍ القَسْطَلَّانيُّ (ت ٩٢٣هـ) وهو مِن أعيانِ علماءِ المئةِ العاشرةِ، الذي اشتُهِرَ بـ«إرشادِ الساري لشرحِ صحيحِ البخاريِّ» و«المواهبِ اللدنيَّةِ بالمنحِ المحمديَّةِ» وله عدة تصانيف أخرى سيأتي ذكرها في موضعها، فجاءَ هذا البحث للتعريف بهذا العالم الجليل، وما أسهم به في خدمة السُّنة النبوية، وتراث الأمة المحمدية، وقد قسمتُ هذا البحث إلى أحدى عشر مطلبًا، راجيًا من الله سبحانه وتعالى أن أكون وفقتُ فيه إلى الصواب والسداد.

التَّعريفُ بالعلَّامةِ شِهابِ الدِّينِ القَسطَلَّانيّ

وفيه أحد عشر مطلبًا:

- المَطْلَبُ الأَوَّلُ: العَصْرُ الَّذِي عَاشَ فِيهِ القَسْطَلَّانِيُّ مِنَ النَّاحِيَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالعِلْمِيَّةِ، وَتَأَثُّرُهُ بِذَلِكَ.
- المَطْلَبُ الثَّانِي: اسْمُهُ وَنَسَبُهُ وَلَقَبُهُ.
- المَطْلَبُ الثَّالِثُ: مَوْلِدُهُ، وَنَشْأَتُهُ، وَرِحْلَتُهُ.
- المَطْلَبُ الرَّابِعُ: شُيُوخُهُ.
- المَطْلَبُ الخَامِسُ: تَلَامِيذُهُ.
- المَطْلَبُ السَّادِسُ: مُؤَلَّفَاتُهُ.
- المَطْلَبُ السَّابِعُ: مَنَاصِبُهُ.
- المَطْلَبُ الثَّامِنُ: مَذْهَبُهُ وَاعْتِقَادُهُ.
- المَطْلَبُ التَّاسِعُ: المَآخِذُ الَّتِي أُخِذَتْ عَلَيْهِ، وَالجَوَابُ عَنْهَا.
- المَطْلَبُ العَاشِرُ: ثَنَاءُ العُلَمَاءِ عَلَيْهِ.
- المَطْلَبُ الحَادِي عَشَرَ: وَفَاتُهُ.

المَطْلَبُ الأَوَّلُ: العَصْرُ الَّذِي عَاشَ فِيهِ القَسْطَلَّانِيُّ سِيَاسِيًّا وَاجْتِمَاعِيًّا وَعِلْمِيًّا، وَتَأَثُّرُهُ بِهِ

أوَّلًا: الناحيةُ السياسيَّةُ

نشأ شهابُ الدِّينِ القسطلانيُّ بمصرَ في العصرِ المملوكيّ، في عهدِ دولةِ المماليكِ البُرجيَّةِ (الجراكسةِ)، وقد امتدَّ حكمُهم من سنةِ (٧٨٤هـ) إلى سنةِ (٩٢٣هـ)[١]، وسُمُّوا بالبُرجيَّةِ نسبةً إلى أبراجِ القلعةِ التي أنزلَهم فيها السلطانُ قَلاوونُ[٢].

ولم يُدرِكِ القسطلانيُّ من الدولِ غيرَ هذه الدولةِ؛ فقد وُلد سنةَ (٨٥١هـ) وتُوفِّي سنةَ (٩٢٣هـ)، وهي السنةُ التي انتهى فيها حكمُ البُرجيَّةِ بمصرَ، فكان عمرُه كلُّه في ظلِّها، من مولدِه إلى منتهاها.

وكان عهدُهم مضطربًا، كثيرَ الصراعِ على السلطةِ، متغير السلاطين والحكام بكثرة[٣].

ثانيًا: الناحيةُ الاجتماعيَّةُ و أثرُها فيه

ألقتِ الاضطراباتُ السياسيَّةُ بظلِّها على أحوالِ الناسِ، فضعفت معايشُهم، وكثرتِ المجاعاتُ والأوبئةُ[٤]، وتدهورت الحالةُ الاقتصاديَّةُ.

ومِن أظهرِ ما في هذا العصرِ اجتماعيًّا شيوعُ التصوُّفِ ورعايةُ الدولةِ له؛ فقد كان زاخرًا بعلماءَ متصوِّفةٍ، وكان مِن السلاطينِ والأمراءِ مَن يشترطُ في أوقافِه على المدارسِ أن يكونَ طلبتُها ومدرِّسوها من الصوفيَّةِ، وإن كانوا يُدرِّسون الفقهَ والحديثَ، وكذا انتشرت الخوانك أو الخوانق طليعة الأربع مئة هجرية[٥].

---

(١) انظر: «السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزي (٢/٢١٨).

(٢) المصدر السابق، وانظر ترجمته: «تاريخ الإسلام» (١٥/٦٤٠)، «فوات الوفيات» (١/٤٠٦).

(٣) وقد عاصر القسطلاني منذ مولده إلى وفاته ستة عشر سلطانًا: بدءًا من: السلطان الملك الظاهر جقمق (٨٤٢هـ - ٨٥٧هـ) انتهاءً بـ: السلطان الملك الأشرف طومان باي (٩٢٢هـ - ٩٢٣هـ). انظر: «مورد اللطافة» (٢/١٨٥)، «الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم» (٤/٢٢٤).

(٤) ومِن أشهرها: الطاعون، فقد انتشر في تلك الحقبة انتشارًا عجيبًا، وتوفي على إثر ذلك خلق كثير، حتى صارت الجنائز تمر في الشوارع والطرقات كالقطارات. انظر: «بدائع الزهور في وقائع الدهور» (٢/٣٥٩)، «شذرات الذهب» (٩/٥٤١-٥٤٢).

(٥) وهي بيتٌ أو دار للصوفية يجتمعون فيه ويتخذونه مكانًا للعبادة. «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» (٤/٧٢٤).

وأثرُ ذلك في القسطلانيّ ظاهرٌ؛ فميلُه إلى التصوُّفِ بادٍ في «المواهبِ اللدنيَّةِ»، فلم يكن اختيارًا معزولًا عن بيئتِه، بل جاريًا على ما كان سائدًا في زمانِه ومحلَّ رعايةٍ من دولتِه، وسيأتي تحريرُ مذهبِه واعتقادِه في موضعِه.

ثالثًا: الناحيةُ العلميَّةُ و أثرُها فيه

ومع ما تقدَّم مِن الاضطرابِ، فقد كان هذا العصرُ مِن أزهى عصورِ التأليفِ؛ حتى عُدَّ عصرَ الموسوعاتِ الكبار، وفيه صنَّف ابنُ حجرٍ والمقريزيُّ والعينيُّ والسخاويُّ والسيوطيُّ وقد أسهم في ذلك تشجيعُ حكّامِ المماليكِ للعلمِ؛ من افتتاحِ المدارسِ، وتعيينِ العلماءِ للتدريسِ، ورصدِ الأوقافِ، وإجراءِ الرواتبِ على الطلبةِ[1].

وأمّا اختصاصُ مصرَ بهذا الازدهارِ فمردُّه - فيما ذكره المؤرّخون- إلى توافدِ العلماءِ عليها من بغدادَ والشامِ في موجاتِ الاضطرابِ المتعاقبةِ، ثم إلى تراكمِ ما بذله أهلُ العلمِ فيها من التدريسِ والتدوينِ جيلًا بعد جيلٍ، حتى استقرَّت فيها تقاليدُ علميَّةٌ ورثها القسطلانيُّ عن مشايخِه.

وأخصُّ ما يتَّصلُ بالقسطلانيّ من هذه النهضةِ أنَّ عصرَه كان عصرَ الشروحِ الكبرى على «صحيحِ البخاريّ»؛ فقد سبقه فيه الكِرمانيُّ (ت ٧٨٦هـ)، وابنُ حجرٍ بـ«فتحِ الباري» (ت ٨٥٢هـ)، والعينيُّ بـ«عمدةِ القاري» (ت ٨٥٥هـ).

فوقع شرحُه في زمنٍ اكتملت فيه الشروحُ الكبرى قبله بعقودٍ، فأمكنه الوقوفُ عليها والإفادةُ منها؛ وبيانُ أثرِ ذلك في منهجِه يأتي في موضعِه.

فالقسطلانيُّ نتاجُ هذا العصرِ من وجهين: اضطرابُه السياسيُّ والاجتماعيُّ صرفَ العلماءَ إلى التصنيفِ والتصوُّفِ، وازدهارُه العلميُّ هيَّأ له مادَّةً مكتملةً من الشروحِ يبني عليها؛ فجاء عملُه جمعًا على نهضةٍ سابقةٍ، وميلُه الصوفيُّ جاريًا على عُرفِ زمانِه وما عليه أهلُ بلده.

---

(١) انظر: «بدائع الزهور» (١/٤٥٥).

المَطْلَبُ الثَّانِي: اسْمُهُ وَنَسَبُهُ وَلَقَبُهُ

أوَّلًا: اسمُه ونسبُه وكنيتُه

هو أحمدُ بنُ محمدِ بنِ أبي بكرِ بنِ عبدِ الملكِ بنِ الزَّينِ أحمدَ بنِ الجمالِ محمدِ بنِ الصفيِّ محمدِ بنِ المجدِ حُسينِ بنِ التاجِ عليٍّ، القَسْطَلَّانيُّ الأصلِ، المصريُّ، الشافعيُّ، القُتَيبيُّ، وكنيتُه: أبو العبَّاسِ[١].

ثانيًا: لقبُه:

لُقِّب بـ«شهابِ الدِّينِ»، وبه يُصدَّر اسمُه في عامَّةِ كتبِ التراجمِ[٢]، وهو مِن الألقابِ المضافةِ إلى «الدِّينِ» التي شاعت في المتأخِّرين.

واشتُهر بالنسبةِ حتى غلبتْ على اسمِه، قال السخاويُّ: «ويُعرَفُ بالقَسْطَلَّانيِّ»[٣]

ثالثًا: نسبتُه

(أ) القَسْطَلَّانيُّ: -بفتحِ القافِ، وسكونِ السينِ، وفتحِ الطاءِ، واختُلف في تشديدِ اللامِ-[٤] وهي نسبةٌ إلى «**قَسْطِيلِيَة**»، إقليمٍ بإفريقيَّةَ -تونسَ اليومَ- غربيَّ مدينةِ قَفْصةَ، وقيل: إلى مدينةِ «تُوزَر» أهمِّ مدنِ ذلك الإقليمِ[٥].

---

(١) كما في «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» للسخاوي (١٠٣/٢)، «البدر الطالع» للشوكاني (١٠٢/١). وانظر ترجمتُه في: «شذرات الذهب» (١٦٩/١٠)، «الكواكب السائرة» (١٢٨/١)، «سلم الوصول إلى طبقات الفحول» (١٩٧/١)، «الأعلام» (٢٣٢/١)، «معجم المؤلفين» (٨٥/٢)، «فهرس الفهارس» (٩٦٧/٢).

(٢) انظر: «الضوء اللامع» (١٠٣/٢)، «البدر الطالع» (١٠٢/١).

(٣) «الضوء اللامع» (١٠٣/٢).

(٤) انظر: «تاج العروس» (٢٥٠/٣٠-٢٥٢)، «شرح المواهب» (٤٣١/١٢).

(٥) انظر: «المسالك والممالك» للبكريّ (٧٠٨/٢)، «معجم البلدان» (٥٧/٢)، «الديباج المذهب» (٢٣٩/١)، «تاج العروس» (٢٥١/٣٠).

(ب) القُتَيبيُّ

نسبةٌ إلى قُتَيبةَ بنِ مَعْنٍ، من بيتِ باهلةَ[١]

(ج) المصريُّ والشافعيُّ

فالأُولى نسبةُ دارٍ وموطنٍ؛ إذ بمصرَ كان مولدُه ومنشؤُه ووفاتُه. والثانيةُ نسبةٌ مذهبيَّةٌ، وسيأتي الكلامُ على مذهبِه في موضعِه.

(١) «بيتُ باهلةَ» هم ولدُ مالك بن أعصر: سعدُ مناة، وأمُّه باهلةُ بنتُ صعب بن سعد العشيرة، من مذحج. انظر: «جمهرة أنساب العرب» (١/٢٤٥)، «الأنساب» للسمعاني (١٠/٣٤٠).

المَطْلَبُ الثَّالِثُ: مَوْلِدُهُ وَنَشْأَتُهُ وَرِحْلَتُهُ

أوَّلًا: مولدُه

وُلد في الثاني والعشرين من ذي القَعدةِ سنةَ إحدى وخمسين وثمانمائةٍ (٨٥١هـ) بمصرَ[١]، في العصرِ الذي تقدَّم بيانُ أثرِه في تكوينِه.

ثانيًا: نشأتُه العلميَّةُ

نشأ بمصر، وجرى على عادةِ طلبة العلم: فحفظ ما يؤصّل به علمه، ويبني به نفسه؛ فحفِظ القرآنَ الكريمَ، ثم «الشاطبيَّةَ» و«العقيلةَ» في القراءاتِ ورسمِ المصحفِ، ونصفَ «الطيِّبةِ» لابنِ الجَزَريّ في القراءاتِ العشرِ، و«الورديَّةَ» في النحوِ[٢].

ويُلحَظُ من ترتيبِ محفوظاتِه تقديمُه علومَ القراءاتِ على ما سواها، وقد أفصح عن ذلك بنفسِه فقال: «وهذا العلمُ هو أوَّلُ علمٍ مَنَّ اللهُ عليَّ بتعلُّمِه، وأسبقُ فنٍّ عالجتْ نفسي قبلَ بلوغِ الحُلُمِ في تفهُّمِه»[٣].

ثم انصرف إلى الحديثِ، فقرأ «صحيحَ البخاريّ» في خمسةِ مجالسَ على شيخِه السخاويّ[٤]، ولازمه حتى قرأ عليه بعضَ مؤلَّفاتِه. وفي هذه الملازمةِ ملحظٌ هام؛ فإنَّ السخاويَّ من أبرزِ تلاميذِ الحافظِ ابنِ حجرٍ، فيتَّصلُ القسطلانيُّ بمدرستِه الحديثيَّةِ من طريقِ تلميذِه المباشرِ. وقرأ في الفنونِ على جماعةٍ من شيوخِ عصرِه[٥]، وسيأتي تفصيلُهم.

---

(١) «الضوء اللامع» (١٠٣/٢).

(٢) انظر: «الضوء اللامع» (١٠٣/٢).

(٣) «لطائف الإشارات لفنون القراءات» للقسطلاني (١٩٥/١).

(٤) «النور السافر» للعيدروس (ص: ١٠٦).

(٥) «البدر الطالع» (١٠٢/١).

ثالثًا: رحلاتُه

رحل إلى الحجازِ أربعَ رحلاتٍ، تُعرَفُ من نصوصِه في خواتيمِ كتبِه ومن كتبِ التراجمِ:

الأولى: سنةَ (٨٧٧هـ)، وعمرُه ستٌّ وعشرون سنةً، وهي أقدمُ ما عُرِف من رحلاتِه؛ ذكر أنَّه فرغ من تبييضِ «اللآلئِ السنيَّةِ» بالمسجدِ الحرامِ في الرابعِ من شعبانَ سنةَ سبعٍ وسبعين وثمانمائةٍ[١]. وفيه أنَّه كان يشتغلُ بالتصنيفِ في أثناءِ مُقامِه بالحرمِ.

الثانية: سنةَ (٨٨٤–٨٨٥هـ)، وعمرُه ثلاثٌ وثلاثون إلى أربعٍ وثلاثين، قال في «المواهبِ»: «ووقع لي أيضًا في سنةِ خمسٍ وثمانين وثمانمائةٍ، في طريقِ مكةَ، بعد رجوعي من الزيارةِ الشريفةِ لقصدِ مصرَ...»[٢] — فدلَّ على أنَّ (٨٨٥هـ) سنةُ رجوعِه، وأنَّ خروجَه كان قبلَها.

الثالثة: سنةَ (٨٩٢–٨٩٣هـ)، وعمرُه إحدى وأربعون إلى اثنتين وأربعين، أشار إلى مسيرِه للزيارةِ في ربيعٍ الآخرِ سنةَ اثنتين وتسعين وثمانمائةٍ فقال: «ولاح لنا عند الصباحِ جبلٌ مُفرِّحُ الأرواحِ، المبشِّرُ بقربِ المزارِ من أشرفِ الديارِ»[٣]. ويظهرُ أنَّها امتدَّت إلى العامِ التالي؛ إذ ذكر أنَّه كان بمكَّةَ في جُمادى الأولى سنةَ ثلاثٍ وتسعين وثمانمائةٍ[٤].

الرابعة: سنةَ (٨٩٧هـ)، وعمرُه ستٌّ وأربعون، ذكر السخاويُّ أنَّه قدِم مكَّةَ بحرًا صحبةَ ابنِ أخي الخليفةِ، فحجَّ ثم رجع معه[٥].

ولا يُستبعَدُ أن تكونَ له رحلاتٌ أُخَرُ لم تصلْ أخبارُها؛ غير أنَّ الغالبَ على مسيرتِه العلميَّةِ أنَّها كانت داخلَ الديارِ المصريَّةِ، وقد أفاد في هذه الرحلاتِ مِن بعضِ علماءِ الحرمِ كما سيأتي في شيوخِه.

---

(١) «اللآلئ السنية» للقسطلاني – تحقيق الشيخ عبدالرحيم الطرهوني (ص: ٤٤٦).

(٢) «المواهب اللدنية» (٦٠٦/٣).

(٣) «المواهب اللدنية» (٥٩٢/٣).

(٤) «المواهب اللدنية» (٦٠٦/٦).

(٥) «الضوء اللامع» (١٠٤/٢).

المَطْلَبُ الرَّابِعُ: شُيُوخُهُ

تلقَّى القسطلانيُّ العلمَ عن عددٍ كبيرٍ من شيوخِ عصرِه، ويمكن تصنيفُهم بحسبِ الفنِّ الذي أخذه عن كلٍّ منهم وموضعِ الأخذِ؛ وفي هذا التصنيفِ دلالةٌ يأتي بيانُها بخاتمة المطلب -بمشيئة الله تعالى-.

أوَّلًا: شيوخُه في الحديثِ بالقاهرةِ

أخذ الحديثَ عن جماعةٍ من المحدِّثين، أبرزُهم:

١) شمسُ الدِّينِ محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ محمدٍ، أبو الخيرِ السخاويُّ (ت ٩٠٢هـ): قرأ عليه القسطلانيُّ «صحيحَ البخاريِّ» في خمسةِ مجالسَ، وسمِع عليه المتونَ ولازمه[١].

ويكتسبُ ذكرُ السخاويِّ هنا خصوصيَّةً تستحقُّ الإشارةَ؛ فإنَّه «حضر إملاءَ الحافظِ ابنِ حجرٍ وهو صغيرٌ، فحُبِّب إليه الحديثُ، ولازم مجالسَه». فكان من الحلقاتِ الواصلةِ بين الحافظِ ابنِ حجرٍ -أعظمِ شارحٍ لـ«صحيحِ البخاريِّ» في ذلك العصرِ كما تقدَّم- وبين طلبتِه، ومنهم القسطلانيُّ. فاتَّصل القسطلانيُّ بمدرسةِ ابنِ حجرٍ الحديثيَّةِ من طريقِ تلميذِه المباشرِ، وسيظهرُ أثرُ ذلك في شرحيه على الصحيحين.

٢) رضيُّ الدِّينِ محمدُ بنُ محمدِ بنِ محمدٍ الأُوجاقيُّ (ت ٨٤٥هـ)، أخذ عنه الحديثَ[٢].

٣) أبو السعودِ محمدُ بنُ محمدٍ الغِراقيُّ الشافعيُّ (ت ٨٨٩هـ): سمِع من الحافظِ ابنِ حجرٍ وغيرِه، وأخذ عنه القسطلانيُّ الحديثَ[٣]. **وفي أخذِه عنه اتِّصالٌ ثانٍ بمدرسةِ ابنِ حجرٍ**، فقد سمِع منه مباشرةً.

---

(١) «الضوء اللامع» (١٠٣/٢)، «النور السافر» (ص: ١٠٦).

(٢) «الضوء اللامع» (١٠٣/٢)، وانظر ترجمته: (٤٩/٩).

(٣) انظر: «الضوء اللامع» (١٠٣/٢)، وترجمته: (٢٥٥/٩).

ثانيًا: شيوخُه في القراءاتِ والفقهِ بالقاهرةِ

ويُلاحَظُ أنَّ هذه المجموعةَ كانت الأكبرَعددًا بين شيوخِه، وهو موافقٌ لِما تقدَّم من أنَّ القراءاتِ كانت أوَّلَ ما اشتغل به قبل بلوغِ الحُلُمِ.

(أ) في القراءاتِ:

١) الشهابُ أبو العبَّاسِ أحمدُ بنُ أسدِ بنِ عبدِ الواحدِ بنِ أحمدَ، ابنُ أسدِ الدِّينِ أبي القُوَّةِ، الأَمْيُوطيُّ الأصلِ، السكندريُّ المولدِ، القاهريُّ الشافعيُّ المقرئُ (ت ٨٧٢هـ):

برع في فنِّ القراءاتِ وتصدَّى للإقراءِ زمانًا، وكان مشاركًا في كثيرٍ من العلومِ، وقد عرض محفوظاتِه على جمعٍ من الأعلامِ منهم الجلالُ البلقينيُّ[١] والوليُّ العراقيُّ[٢]، وأخذ الفقهَ والعلومَ عن شيوخِ ذلك العصرِ. مات راجعًا من الحجِّ في أواخرِ سنةِ اثنتين وسبعين وثمانمائةٍ[٣].

قرأ عليه القسطلانيُّ القراءاتِ، و«اللاميَّةَ» للشاطبيِّ، و«المقدِّمةَ الجَزَريَّةَ»[٤].

---

(١) انظر ترجمته في: «ذيل طبقات الحفاظ» (ص: ٢٤٤)، «طبقات المفسرين» (٢/ ٥).

(٢) انظر ترجمته في: «غاية النهاية في طبقات القراء» (١/ ٣٨٢)، «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» (٧/ ٢٤٥)، «الأعلام» (٣/ ٣٤٤).

(٣) انظر: «الضوء اللامع» (١/ ٢٣٠)، «الجواهر والدرر» للسخاوي (٣/ ١٠٧٢)، «نظم العقيان» (ص: ٣٦).

(٤) انظر: «الضوء اللامع» (١/ ٢٢٧).

٢) زينُ الدِّينِ أبو محمدٍ عبدُ الدائمِ بنُ عليٍّ، الحديديُّ ثم القاهريُّ الأزهريُّ الشافعيُّ (ت ٨٧٠هـ):

تلا بالقراءاتِ السبعِ على الشمسِ الزَّراتيتيِّ[١]، والشهابِ السكندريِّ[٢]، وحبيبٍ العجميِّ[٣]، وقرأ بعضَ القراءاتِ العشرِ على ابنِ الجَزَريِّ[٤] وولدِه أحمدَ، وقرأ «شرحَ الجَزَريَّةِ» و«الطيِّبةَ» ووصل فيها إلى سورةِ هودٍ، تُوفِّي في رمضانَ سنةَ سبعين وثمانمائةٍ[٥]. وقد أجاز القسطلانيَّ في القراءاتِ[٦].

ومن هنا يظهرُ اتِّصالُ إسنادِ القسطلانيِّ في القراءاتِ بابنِ الجَزَريِّ -إمامِ هذا الفنِّ في عصرِه- من طريقِ شيخِه الحديديِّ؛ كما اتَّصل في الحديثِ بابنِ حجرٍ من طريقِ السخاويِّ. فهو في الفنَّين معًا آخذٌ عن الطبقةِ التاليةِ لأئمَّةِ الفنِّ الكبارِ.

(ب) في الفقهِ:

٣) سراجُ الدِّينِ أبو حفصٍ عمرُ بنُ حسينِ بنِ حسنِ بنِ عليٍّ العبَّاديُّ، القاهريُّ الشافعيُّ الأزهريُّ (ت ٨٨٥هـ)، ويُعرَفُ بالسراجِ العبَّاديِّ الكبيرِ، شيخُ الشافعيَّةِ في عصرِه وأحدُ رؤوسِ المذهبِ في زمانِه. أخذ عنه القسطلانيُّ الفقهَ[٧].

---

(١) انظر ترجمته في: «غاية النهاية في طبقات القراء» (٢/ ٢١٠)، «الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة» (٣/ ٢٢٨٠، ٢٢٨١).

(٢) انظر ترجمته في: «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (١/ ٢٦٣، ٢٦٤)، «الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة» (١/ ١٦٢).

(٣) لم أقف على ترجمةٍ له فيما بدا لي، والله أعلم.

(٤) انظر: «الضوء اللامع" (٤/٤٢)، وانظر ترجمته في: «معجم المؤلفين» (٥/١١١)، «الموسوعة الميسرة في تراجم أئمة التفسير والإقراء والنحو واللغة» (٢/١١٤٠).

(٥) انظر: «الضوء اللامع» (٤/٤٢)، «معجم المؤلفين» (٥/١١١)، «الموسوعة الميسرة» (٢/١١٤٠).

(٦) المصدر السابق.

(٧) انظر: «الضوء اللامع» (٦/٨١-٨٣)، «سلم الوصول» (٥/١٢٥)، «الجواهر والدرر» (٣/١١٢١).

ثالثًا: شيوخُه بمكَّةَ

زينبُ بنتُ أحمدَ الشُّوبَكيَّةُ المكِّيَّةُ (ت ٨٨٦هـ):

وهي حالةٌ لافتةٌ لتأملها؛ إذ كانت من العالماتِ المسنِداتِ بمكَّةَ، وُصفت بأنَّها «خيِّرةٌ مباركةٌ صالحةٌ كثيرةُ العبادةِ والصدقةِ والصيامِ والطوافِ والاعتمارِ»، وقد عُمِّرت طويلًا محتفظةً بسمعِها وبصرِها[١].

فأخذ عنها القسطلانيُّ في رحلاتِه إلى مكَّةَ التي تقدَّم تفصيلُها وفي هذا ما يُفيد أنَّ رحلاته لم تكن للنسك وحسب؛ فقد استثمرها في السماعِ أيضًا، ولو من المسنِداتِ لا من كبارِ الأئمَّةِ، وهذا شائعٌ معروفٌ عند طلبةِ الحديثِ في تلك القرونِ طلبًا لتحصيلِ الإسنادِ العالي.

رابعًا: ما يُستفادُ من النظرِ في مشيخته

بالنظرِ في مجموعِ ما تقدَّم، فإن المتأمل يجدُ ما يلي:

أولًا: الكثرةُ والتنوُّعُ لا الإفرادُ.

يظهرُ من تعدُّدِ شيوخِه في فنونٍ متفرِّقةٍ -القراءاتِ والفقهِ والحديثِ- ومن أماكنَ متعدِّدةٍ -القاهرةِ ومكَّةَ- أنَّه سلك مسلكَ الجمعِ بين عددٍ من الشيوخِ لا الاقتصارَ على واحدٍ يتعمَّقُ فيه.

وهذا يتَّسقُ مع البيئة العلميَّةِ العامَّةِ لعصرِه الذي تقدَّم وصفُه بأنَّه عصرُ الموسوعاتِ وتكثيرِ الأسانيدِ؛ فالقسطلانيُّ بهذا التنوُّعِ في مشيخته نموذجٌ مصغَّرٌ لبيئة عصرِه العلميَّة.

(١) انظر: «الضوء اللامع» (٣٩/١٢)، «السحب الوابلة» (١٢١٤/٣).

ثانيًا: توزُّعُ الأخذِ بحسبِ اختصاصِ الشيخِ لا على وجهِ التكثيرِ المجرَّدِ.

يظهرُ من طبيعةِ شيوخِه توزُّعٌ وظيفيٌّ واضحٌ: فقد أخذ القراءاتِ عن أهلِ هذا الفنِّ بأعيانِهم -الأميوطيِّ والحديديِّ ومن تلا على ابنِ الجَزَريِّ- وأخذ الحديثَ عن السخاويِّ والأوجاقيِّ والغراقيِّ، وأخذ الفقهَ عمَّن اشتُهر به وهو العبَّاديُّ شيخُ الشافعيَّةِ.

فلم يكن جمعُه للشيوخِ عشوائيًّا لمجرَّدِ التكثيرِ، بل كان يقصدُ بكلِّ شيخٍ فنًّا بعينِه، وسيظهرُ أثرُ ذلك في مصنَّفاتِه؛ فما أخذه في القراءاتِ وظَّفه في ضبطِ الألفاظِ والرواياتِ في شروحِه، وما أخذه في الحديثِ وظَّفه في «إرشادِ الساري» و«منهاجِ الابتهاجِ».

وثمَّ خلقٌ كثيرٌ غيرُ هؤلاءِ ممَّن لازمهم القسطلانيُّ وأسهموا في تكوينِه العلميِّ، ولم أقفْ على تفصيلِ أخبارِهم فيما اطَّلعتُ عليه.

المَطْلَبُ الخَامِسُ: تَلَامِيذُهُ

اقتصر أكثرُ من ترجم للقسطلانيّ على ذكرِ مشاركتِه في التدريسِ والإقراءِ من غيرِ توسُّعٍ في تسميةِ تلاميذِه بأعيانِهم؛ قال السخاويُّ في وصفِ حالِه: «أقرأ الطلبةَ»[١]. وهو ما يستدعي وقفةً قبل عرضِهم.

أوَّلًا: في قلَّةِ مَن ذُكر مِن تلاميذِه

فالمتأمل في سيرته يتراءى له ما كان عليه من مكانةً علميةً، وتصانيف عديدة، ثم لا يجد ذكرًا لتلاميذه إلا القليل.

والذي يظهرُ أنَّ عنايتَه انصرفت في الأصلِ إلى التأليفِ والإقراءِ، لا إلى التصدُّرِ للتدريسِ الذي عُرِف به من اتَّخذوا حِلَقًا واسعةً تخرَّج فيها الكثير. قال العَيدروسُ: «ارتفع شأنُه... وأُعطي السعدَ في قلمِه وكلِمِه، فصنَّف التصانيفَ المقبولةَ التي سارت بها الركبانُ في حياتِه»[٢].

فهذا الانشغالُ الكثيفُ بالتصنيفِ -وشرحُه على البخاريّ وحدَه في عشرةِ أسفارٍ كبارٍ، فضلًا عن «المواهبِ اللدنيَّةِ» و«منهاج الإبتهاج» الذي لم يتسنى له إتمامه- هو الذي استنفد جهدَه ووقتَه، فكان حضورُه العلميُّ بالتأليفِ أظهرَ منه بالتدريسِ.

ويشهدُ لهذا ما نقله صاحبُ «الكواكبِ السائرةِ» مِن أنَّه كان يقولُ لتلميذِه: «احضرْ عند شيخِ الإسلامِ شرحي، فمهما وجدتَه خالفني فيه فاكتبْه لي في ورقةٍ»، ثم قال له مرَّةً: «لا تَغفلْ عن كتابةِ ما يُخالفُني فيه الشيخُ، فإنَّه لا يُحرِّرُ الكتابَ إلا الطلبةُ، ولا طلبةَ لي»[٣].

وهذه العبارةُ -مع ما فيها من تواضعِه رحمه اللهُ- تصريحٌ منه بقلَّةِ مَن لازمه، فهي أصدقُ شاهدٍ على ما تقدَّم.

---

(١) «الضوء اللامع» (١٠٣/٢).

(٢) «النور السافر» (ص: ١٠٧).

(٣) «الكواكب السائرة» (١٢٨/١).

ثانيًا: تلاميذُه بحسبِ ما أخذوه عنه

(أ) من أخذ عنه القراءاتِ:

١) زينُ الدِّينِ عبدُ الرحمنِ بنُ يوسفَ الأُجْهُوريُّ المصريُّ المالكيُّ (ت بعد ٩٦٠هـ): الشيخُ الإمامُ العلَّامةُ الزاهدُ الخاشعُ، مفتي المسلمين، شارحُ «مختصرِ خليلٍ» تلا على القسطلانيِّ بالقراءاتِ الأربعَ عشرةَ، وحضر عليه قراءةَ «المواهبِ اللدنيَّةِ»[١].

٢) سليمانُ الخُضَيريُّ المصريُّ الشافعيُّ (ت ٩٦١هـ): الشيخُ الصالحُ الفاضلُ. تلا عليه بالقراءاتِ الأربعَ عشرةَ، وحضر عليه قراءةَ «المواهبِ اللدنيَّةِ»[٢].

٣) شمسُ الدِّينِ محمدُ بنُ عبدِ الرحيمِ الدَّيروطيُّ ثم الدمياطيُّ الواعظُ (ت ٩٢١هـ): ذكر القسطلانيُّ أنَّه قرأ عليه «المقدِّمةَ الجَزَريَّةَ»[٣]. وفي هذا فائدةٌ: أنَّ القسطلانيَّ أقرأ ما كان قد قرأه هو على شيخِه الأميوطيِّ[٤]، فاتَّصلت السلسلةُ في هذا المتنِ بعينِه.

(ب) من أخذ عنه شرحَه على البخاريِّ و«المواهبَ»:

٤) برهانُ الدِّينِ إبراهيمُ بنُ حسنِ بنِ عبدِ الرحمنِ الحلبيُّ الشافعيُّ، الشهيرُبابنِ العِماديِّ (ت ٩٥٤هـ): الشيخُ الإمامُ شيخُ الإسلامِ. وُلد بحلبَ بعد الثمانين وثمانمائةٍ ونشأ بها وأخذ عن جماعةٍ من أهلِها، ثم حجَّ من طريقِ القاهرةِ فأخذ عن جماعةٍ من علمائِها، منهم القاضي زكريَّا والبرهانُ بنُ أبي شريفٍ والنورُ المَحَلِّيُّ والشهابُ القسطلانيُّ.

وقرأ على القسطلانيِّ: المسلسلَ بالأوَّليَّةِ، وثلاثيَّاتِ البخاريِّ، والأربعين الثلاثيَّاتِ المستخرَجةَ من «مسندِ أحمدَ»، و«شرحَه على البخاريِّ»، و«المواهبَ اللدنيَّةَ»، و«فتحَ الدانيِّ من كنزِ حرزِ الأماني»[٥].

٥) محمدُ بنُ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ بدرٍ الغزِّيُّ (ت ٩٨٤هـ): والدُ صاحبِ «الكواكبِ السائرةِ». أخذ عن القسطلانيِّ «شرحَه على البخاريِّ» و«المواهبَ اللدنيَّةَ»، وأجازه بهما وبسائرِ مؤلَّفاتِه، وقرأ عليه بعضَ مصنَّفاتِه الأُخَرِ[٦].

(ج) من أُجيز منه:

---

(١) انظر: «الكواكب السائرة» (٢/١٥٨-١٥٩)، «الأعلام» (٣/٣٤٣).

(٢) انظر: «شذرات الذهب» (١٠/٤٧٦)، «الكواكب السائرة» (٢/١٤٨).

(٣) «اللآلئ السنية» للقسطلاني (ص: ١٥٤)، «الطبقات الكبرى» للشعراني (٢/١٥٧-١٥٨)، «معجم المؤلفين» (٨/٢٦٠).

(٤) تقدَّم في المطلب الرابع (ص: ٨٦).

(٥) انظر: «شذرات الذهب» (١٠/٤٣١-٤٣٢)، «الكواكب السائرة» (٢/٣)، «الموسوعة الميسرة» (١/٢٧).

(٦) انظر: «الكواكب السائرة» (١/١٢٨-١٢٩) (٢/٣-٤)، «البدر الطالع» (٢/٢٥٢).

٦) شهابُ الدِّينِ أحمدُ بنُ محمدِ بنِ إبراهيمَ الأنطاكيُّ الحلبيُّ الحنفيُّ، المعروفُ بابنِ حمَّادةَ (ت ٩٥٣هـ): الشيخُ الإمامُ العلَّامةُ الورعُ، أجازه القسطلانيُّ[١].

٧) زينُ الدِّينِ عبدُ القادرِ المصريُّ الشافعيُّ، المعروفُ بالمِنهاجيِّ (ت ٩١٥هـ): الشيخُ الإمامُ العلَّامةُ المقرئُ، نزيلُ مكَّةَ المشرَّفةِ[٢].

ثالثًا: هل كان تلاميذُه سببًا في انتشارِ مؤلَّفاتِه؟

يظهرُ من مجموعِ من تقدَّم أنَّهم على قلَّتِهم أخذوا عنه كتبَه بأعيانِها لا العلمَ منه مجرَّدًا؛ فالأجهوريُّ والخضيريُّ حضرا قراءةَ «المواهبِ» إلى جانبِ القراءاتِ، وابنُ العِماديِّ ووالدُ صاحبِ «الكواكبِ» قرآ عليه «شرحَه على البخاريِّ» و«المواهبَ» معًا، ومن بقِي أُجيزوا بهذه المؤلَّفاتِ بعينِها.

فهذا التكرارُ اللافتُ يكشفُ أنَّ حلقتَه لم تكنْ حلقةَ تدريسٍ بالمعنى المعروفِ، بل كانت في أصلِها واسطةَ نقلٍ لمصنَّفاتِه؛ فالصلةُ بينه وبينهم مبنيَّةٌ على كتبِه لا على مجلسِ علمٍ عامٍّ يُلقي فيه دروسًا متنوِّعةً.

وبهذا يتحرَّرُ الجوابُ عن الإشكالِ الذي افتتحتُ به هذا المطلبُ: فقلَّةُ من ذُكر من تلاميذِه ليست نقصًا في قدرِه ولا في أثرِه، وإنما هي أثرٌ طبيعيٌّ لانصرافِ جهدِه الأكبر إلى التأليفِ والإقراءِ بدلَ التصدُّرِ للحِلَقِ العامَّةِ، فبارك اللهُ له في كتبِه، فظهر أثرُها بنقلِ مَن لازمه أو أُجيز بها منه.

---

(١) انظر: «الكواكب السائرة» (٢/٩٩-١٠٠)، «معجم المؤلفين» (٢/٦٢).

(٢) انظر: «الكواكب السائرة» (١/٢٥٤)، «شذرات الذهب» (١٠/١٠٢).

*** تفاوتُ درجاتِ الأخذِ عنه**

ويحسُنُ التنبُّهُ -عند تأمُّلِ ألفاظِ هذه التراجمِ- إلى تفاوتٍ واضحٍ في درجةِ ملازمةِ طلبته[1]:

فبعضُهم صُرِّح في حقِّه بألفاظِ القراءةِ والأخذِ المباشرِ، كالأجهوريِّ والخضيريِّ وابنِ العِماديِّ، وردت في حقِّهم: «تلا عليه»، و«قرأ عليه»، و«أخذ عنه».

وبعضُهم جمع بين القراءةِ المباشرةِ في بعضِ الكتبِ والإجازةِ العامَّةِ فيما سواها، كوالدِ صاحبِ «الكواكبِ السائرةِ».

وبعضُهم اقتُصر في حقِّه على لفظِ الإجازةِ المجرَّدةِ من غيرِ ما يدلُّ على ملازمةٍ، كأحمدَ بنِ محمدِ بنِ إبراهيمَ.

وهذا التفاوتُ بذاتِه دليلٌ على أنَّ حلقةَ القسطلانيِّ ضمَّت درجاتٍ متفاوتةً مِن القربِ، بين ملازمٍ قارئٍ ومُجازٍ من غيرِ ملازمةٍ؛ ممَّا يعكسُ في مجموعِه أنَّ أثرَه امتدَّ بصورةٍ رئيسةٍ عبر مؤلَّفاتِه نفسِها لا عبر سلسلةِ تلاميذَ يُحدِّثون عنه ويُدرِّسون منهجَه شفاهًا كما هو الحالُ عند كثيرٍ من أئمَّةِ الحديثِ المتقدِّمين. فصار تلاميذُه القلائلُ -على تفاوتِ درجاتِهم- حلقةَ الوصلِ الأولى بينه وبين من جاء بعدَه، كنَقَلةَ لكتبه ومصنَّفاته أكثرَ مِن علمٍ شفهيٍّ.

(١) هذا الاستقراءُ مبنيٌّ على ما وقفتُ عليه من المصادر.

المَطْلَبُ السَّادِسُ: مُؤَلَّفَاتُهُ العِلْمِيَّةُ

ترك القسطلانيُّ جملةً من المصنَّفاتِ في فنونٍ متعدِّدةٍ، وفيما يلي أشهرُها مرتَّبةً على فنونِها:

أولًا: في القراءات والتجويد:

١) **«لطائفُ الإشاراتِ لفنونِ القراءاتِ»** (مطبوع)[١]، وفيه ذكر أنَّ القراءاتِ أوَّلُ علمٍ اشتغل به قبل بلوغِ الحُلُمِ[٢].

٢) **«فتح الداني في شرح حرز الأماني في القراءات»**[٣]

٣) **«نشر النشر في القراءات العشر»**[٤]

٤) **«شرح طيبة النشر في القراءات العشر»**[٥]

٥) **«الكنز في التجويد»**[٦]

٦) **«اللآلئ السنيَّةُ في شرحِ المقدِّمةِ الجَزَرِيَّةِ»**(مطبوع)[٧]، وهو المتنُ الذي قرأه على شيخِه الأميوطيِّ ثم أقرأه لتلميذِه الدَّيروطيِّ[٨].

---

(١) مطبوعٌ بتحقيق د. خالد حسن أبو الجود، مكتبة أولاد الشيخ للتراث، الجيزة، مصر، الطبعة الأولى ٢٠١٤م.

(٢) «لطائف الإشارات» (١/١٥٩)، وتقدَّم في المطلب الثالث (ص: ٨٣).

(٣) انظر: «معجم المؤلفين» (٢/٨٥)، «فهرس مخطوطات الجامع الكبير بصنعاء» (١/٣٢-٣٣)

(٤) وهو شرح على النشر في القراءات العشر لابن الجزري ت ٨٣٣هـ كما في «الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي» (ص: ٢٠٥) قسم: علوم القرآن، مخطوطات القراءات، الطبعة الثانية.

(٥) ذكر السخاوي في الضوء اللامع (٢/١٠٤) أنه كتب منه قطعة مزجًا -كعادته في الشرح المزجي فيما يبدو لي-، ولعلها تعليقات على شرح طيبة النشر في القراءات العشر لابن الجزري.

(٦) وهو اختصارٌ من كتاب النشر، كان في موضوع وقف حمزة وهشام على الهمز كما ذكر في «لطائف الإشارات» (٢/١٩٨)، وانظر: «كشف الظنون» (٢/١٥١٩)، «هدية العارفين» (١/١٣٩)، «الأعلام» (١/٢٣٢).

(٧) وهو بتحقيق الشيخ عبدالرحيم الطرهوني، مدرس القراءات والتجويد بالأزهر، وانظر: «كشف الظنون» (٢/١٧٩٩)، «هدية العارفين» (١/١٣٩).

(٨) انظر: (ص: ٩١).

ثانيًا: في شرحِ الحديثِ:

٧) **«إرشادُ الساري لشرحِ صحيحِ البخاريّ»** (مطبوع)[١]

٨) **«تحفة السامع والقاري بختم صحيح البخاري»** (مطبوع)[٢]

٩) **«اختصار إرشاد الساري»**[٣]

١٠) **«الدراري في ترتيب أبواب صحيح البخاري»**[٤]

١١) **«منهاجُ الابتهاجِ بشرحِ صحيحِ مسلمِ بنِ الحجَّاجِ»**[٥].

١٢) **«منهاج الهداية إلى معالم الرواية»**[٦]

١٣) **«الأستذكار بأحاديث كتاب الأذكار»** (مطبوع)[٧]

١٤) **«قبس اللوامع في الأدعية والأذكار الجوامع، مختصر كتاب الأنوار له»**[٨]

١٥) **«فهرسة القسطلاني»**[٩]

---

(١) بتحقيق دار عطاءات العلم، الطبعة الأولى ١٤٤٢هـ لدار ابن حزم، بيروت، لبنان، وهي مِن أجود الطبعات لهذا الكتاب.

(٢) بتحقيق: أحمد بن محمد بن غانم الثاني، توزيع دار ابن حزم.

(٣) ولم يكمله، كما قال الكتاني في «فهرس الفهارس» (٩٦٨/٢).

(٤) وهو كما «الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي» – قسم الحديث النبوي الشريف وعلومه ورجاله (ص: ٧٧٤) في المحمودية (كحالة) ١٣٩ (١٧٠ حديث – ضمن مجموع)، وفي «خزانة التراث» (٤٣/٧٣) برقم الحفظ: ٢/٦٩ حديث بالمكتبة المحمودية، وفي مكتبة الملك عبدالعزيز بالمدينة المنورة برقم الحفظ: (٥٦٨/١).

(٥) وهو شرحه على صحيح الإمام مسلم، تبنته جامعة القصيم – قسم السنة النبوية على تحقيقه في مشروع علمي متكامل.

(٦) انظر: «كشف الظنون» (١٨٤٧/٢)، وهو كما «الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي» – قسم الحديث النبوي الشريف وعلومه ورجاله (ص: ١٥٨٣) دار الكتب بالقاهرة (فؤاد ١١٢/٣) [٢٣٨٢٤ب] – (٨٨و) ١٢٣٨هـ، بشير آغا (أيوب) ٤ [٣٩]، البلدية بالأسكندرية (الشندي/المصطلح) ١٣-١٤ [٣٤٧٦جـ].

(٧) محققٌ بواسطة أ.د. محمد إسحاق محمد آل إبراهيم.

(٨) انظر: «الكواكب السائرة» (١٢٩/١)، «هدية العارفين» (١٣٩/١).

(٩) قال الكتاني في «فهرس الفهارس» (٩٦٨/٢): «له فهرسة نسبها له ابن رحمون فيما وقفت عليه بخطه، أرويها وكل ماله بأسانيدنا إلى العياشي عن الخفاجي عن البرهان العلقمي عن أخيه الشمس عن القسطلاني».

ثالثًا: في السيرةِ والشمائلِ:

١٦) «**المواهبُ اللدنيَّةُ بالمنحِ المحمديَّةِ**» (مطبوع)[١]، وهو من أشهرِ كتبِه وأكثرِها تداولًا، وقد قرأه عليه جماعةٌ من تلاميذِه كما تقدَّم.

١٧) «**شرح البرده، سماه: مشارق الأنوار المضية في مدح خير البرية**»[٢]

١٨) «**حاشيةٌ على الشمائل النبوية**»[٣]

١٩) «**مسالك الحنفا إلى مشارع الصلاة على النبي المصطفى**» (مطبوع)[٤]

رابعًا: مؤلفات في الفقه:

٢٠) «**الاسعاد في تلخيص الإرشاد من فروع الشافعية لشرف الدين المقري**»[٥]

---

(١) الكتابُ مطبوعٌ؛ المكتبةُ التوفيقيّة، القاهرة، في ثلاثة أجزاء.

(٢) انظر: «الضوء اللامع» (١٠٤/٢)، «كشف الظنون» (١٣٣٥/٢)، «الأعلام» (٢٣٢/١)، ويقع كما في «خزانة التراث» (٩/٤٧): بدار الكتب المصرية - رقم الحفظ:٣٥٦/٣ (٣٠٢)، (٥٠٨٠)، مكتبة الدولة ببرلين ألمانيا - رقم الحفظ: ٧٧٩٢، أكاديمية ليدن هولندا - رقم الحفظ: ٧٢٠، مكتبة برنستون بأمريكا – رقم الحفظ: ٦٨، مكتبة البلدية بمصر – رقم الحفظ: ١٦٠ ادب.

(٣) كما «الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي» – قسم السيرة والمدائح النبوية (ص: ٢٥٦) بالخزانة التيمورية / القاهرة ٢٧٩/٢ [٤٨٨].

(٤) بتحقيق حسين محمد علي شكري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٥) انظر: «كشف الظنون» (٦٩/١)، «هدية العارفين» (١٣٩/١).

خامسًا: مؤلفات في التراجم:

٢١) «**الروض الزاهر في مناقب الشيخ عبدالقادر**»[١]

٢٢) «**نزهةُ الأبرارِ في مناقبِ الشيخِ أبي العبَّاسِ الحرَّارِ**»[٢]، صنَّفه حين وُلِّي مشيخةَ مقامِه، كما سيأتي في مناصبِه[٣].

٢٣) «**الفتح المواهبي في مناقب الإمام الشاطبي**» (مطبوع)[٤]

٢٤) «**النور الساطع في مختصر الضوء اللامع للسخاوي**»[٥]

سادسًا: مؤلفات في المواعظ:

٢٥) «**إمتاع السمع والأبصار**»[٦]

٢٦) «**زهر الرياض**»[٧]

---

(١) كذا نسبه إليه حاجي خليفة في «كشف الظنون» (٩١٩/١)، وفي «سلم الوصول إلى طبقات الفحول» (١٩٧/١)، و«شذرات الذهب» (١٧٠/١٠)، و«هداية العارفين» (١٣٩/١)، «الأعلام» (٢٣٢/١)، وفي «خزانة التراث» (٩٠٦/٦٠) في المكتبة المركزية بجدة السعودية، رقم الحفظ: ٢٣٤/٦ مجاميع، وقد طُبع كتاب بذات الاسم لمؤلفٍ آخر وهو برهان الدين القادري ت٨٨٠هـ، دار الكتب العلمية، تحقيق أحمد فريد المزيدي كما في «الأعلام» للزركلي (٥٢/١).

(٢) انظر: «الضوء اللامع» (١٠٤/٢)، «النور السافر» (ص١٦٥)، «شذرات الذهب» (١٦٩/١٠).

(٣) انظر: «كشف الظنون» (١٦٦/١)، «هدية العارفين» (١٣٩/١).

(٤) بتحقيق: إبراهيم بن محمد الجرمي، دار الفتح، عمان، الأردن.

(٥) انظر: «كشف الظنون» (٢-١٠٨٩-١٠٩٠)، «إيضاح المكنون» (٦٨٤/٢)، «هدية العارفين» (١٣٩/١)، وله عدة نسخ بالجامعة الإسلامية برقم: ٣٢٤١، والخزانة الملكية الحسنية بالمغرب رقم: ٥٤٦٠.

(٦) انظر: كشف الظنون (١٦٦/١)، هدية العارفين (١٣٩/١)، «الأعلام» (٢٣٢/١).

(٧) انظر: «كشف الظنون» (٩٦٠/٢)، هدية العارفين (١٣٩/١)، ونسخته في مكتبة الإسكندرية (البلدية) بمصر، رقم الحفظ: ٢٠ مواعظ كما في خزانة التراث (١٢/٤٧).

٢٧) «مقامات العارفين»[١]

٢٨) «نفائسُ الأنفاسِ في الصحبةِ واللباسِ»[٢]

٢٩) «يقظةُ ذوي الاعتبارِ في موعظةِ أهلِ الاغترارِ»[٣]

سابعًا: مؤلفات في اللغة العربية:

٣٠) «الوافية شرح الشافية»[٤]

ثامنًا: مؤلفات في الأدب:

٣١) «مخمسات القسطلاني»[٥]

كما في خزانة التراث (١١/٤٧) ونسختها في مكتبة كوبرلي، إسطنبول، تركيا، رقم الحفظ: ٧٨٤.

(٢) انظر: «كشف الظنون» (١٩٦٥/٢)، «هدية العارفين» (١٣٩/١).

(٣) نسبه حاجي خليفة في «كشف الظنون» (٢٠٥٠/٢)، وإسماعيل باشا في «هدية العارفين» (١٣٩/١) لشهاب الدين القسطلاني، وفي «خزانة التراث» (٤٧٢/٣٥) لقطب الدين القسطلاني.

(٤) وهو مطبوعٌ كرسالة ماجستير للطالب عبدالله بن أحمد القرني، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، ولم يعرف الباحث أنه للقسطلاني وذكره بصيغة المجهول باسم: "أحمد بن محمد بن أبي بكر المتوفى بعد سنة ٨١٣"، وهو كما في «خزانة التراث» (٦٠٩/١٠) بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية الرياض – رقم الحفظ: ٠٦٥٩٠، وفي موضعٍ آخر (٨٧٠/٦٣) بمركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بمكة المكرمة – رقم الحفظ: ٩٩٨، وفي مكتبة برنستون بأمريكا – رقم الحفظ: ٥١١٧.

(٥) لم أقف عليه مطبوعًا وهو كما في «خزانة التراث» (٩٩٩/٤٦) في مكتبة برنستون = رقم الحفظ: هـ ١ ٤٩، هـ٢ ٦٥.

تاسعًا: مؤلفات علمية أخرى:

٣٢) «**رسالةٌ في الربع المجيب**»[١]

هذا ما وقفتُ عليه من مؤلفاته، وقد يشتبه للناظر نسبة بعض الكتب لشهاب الدين القسطلاني، مما لم يؤلفها، نظير قرب اسم قطب الدين القسطلاني (ت ٦٨٦هـ) لاسمه[٢].

ما يُستفادُ من النظرِ في مؤلَّفاتِه

يظهرُ من هذه التصانيف الكثيرة أنَّ فنونَ مصنَّفاتِه جاءت مطابقةً لفنونِ من أخذ عنهم؛ فقد أخذ الحديثَ عن السخاويِّ فصنَّف في شرحِ الصحيحين، وأخذ القراءاتِ عن الأميوطيِّ والحديديِّ فصنَّف في القراءاتِ والتجويدِ. فما تقدَّم من طلبه أخذِه بحسبِ اختصاصِ شيوخِه فظهرت ثمرتُه في مصنَّفاتِه.

ويُلاحَظُ كذلك أنَّ عنايتَه بالقراءاتِ لم تنقطعْ بانصرافِه إلى الحديثِ، بل بقِيت مُلازمةً له.

وله غيرُ ما ذُكر من الرسائلِ والتصانيفِ، وقد سارت مصنَّفاتُه في حياتِه؛ قال العَيدروسُ: «صنَّف التصانيفَ المقبولةَ التي سارت بها الركبانُ في حياتِه»[٣].

(١) قال السخاوي في «الضوء اللامع» (١٠٤/٢): "وَأَظنهُ أَخذه عَن الْعِزّ الوفائي"، وانظر: «كشف الظنون» (٨٦٧/١).

(٢) حيث ألف قطب الدين القسطلاني كتبًا نسبها البعض لشهاب الدين القسطلاني، مثل: مدارك المرام في مسالك الصيام (مطبوع)، ومراصد الصِلات في مقاصد الصلاة (مطبوع)، والإفصاح عن المعجم من الغامص والمبهم، واقتداء الغافل باهتداء العاقل، ورسالةٌ في تفسير آياتٍ من القرآن الكريم، ولسانُ البيان عن اعتقادِ الجِنان، وعروة التوثيق النار والحريق، والأدوية الشافية في الأدعية الكافية، ويقظة أهل الاعتبار في موعظة أهل الاغترار، وانظر ترجمته: «مجمع الآداب في معجم الألقاب» (٤١٧/٣)، «تاريخ الإسلام» (٥٧٨/١٥)، «فوات الوفيات» (٣١٠/٣).

(٣) «النور السافر» (ص١٠٧).

المَطْلَبُ السَّابِعُ: مَنَاصِبُهُ

تولَّى القسطلانيُّ جملةً من الوظائفِ العلميَّةِ في القاهرةِ ومكَّةَ، وهي على ثلاثةِ أنواعٍ:

أوَّلًا: الوعظُ والتذكيرُ

جلس للوعظِ بالجامعِ الغَمْريِّ سنةَ ثلاثٍ وسبعين وثمانمائةٍ - وعمرُه اثنتانِ وعشرون سنة[(١)]- وكذا بالشريفيَّةِ بالصبَّانيِّينَ، بل وبمكَّةَ المشرَّفةِ في أثناءِ مُجاورته[(٢)].

وفي تصدُّرِه للوعظِ في هذه السنِّ دلالةٌ على مبلغِه المبكِّرِ من العلمِ.

ثانيًا: مشيخةُ المقامِ

وُلِّي مشيخةَ[(٣)] مقامِ الشيخِ أحمدَ بنِ أبي بكرٍ أبي العبَّاسِ الحرَّارِ[(٤)] بالقرافةِ الصغرى[(٥)]، وصنَّف في مناقبِ صاحبِ المقامِ كتابَه «نزهةَ الأبرارِ في مناقبِ الشيخِ أبي العبَّاسِ الحرَّارِ»[(٦)] فجمع بين تولِّي المشيخةِ والتصنيفِ فيها.

---

(١) بناءً على أنّ مولدَه سنة (٨٥١هـ) كما تقدَّم.

(٢) انظر: «الضوء اللامع» (١٠٤/٢)، «النور السافر» (ص١٦٤)، «شذرات الذهب» (١٩٦/١٠)، «البدر الطالع» (٧٠/١).

(٣) لفظُ «الشيخ» في تركيب الألقاب يُشير إلى مركز الرياسة أو الصدارة الذي يتميّز به صاحبُه عن نظرائه، ويُشير اللقبُ المركَّب عادةً إلى التخصّص، فقيل: شيخُ المسجد، وشيخُ الزاوية. «القاموس الإسلامي» لأحمد عطية (١٩٤/٤).

(٤) الحَرَّارُ: هو أحمدُ بنُ أبي بكرٍ، أبو العبّاس الحَرَّارُ، الزاهدُ المشهورُ بمصرَ، تُوفِّي سنة (٧١٦هـ). «تبصير المنتبه بتحرير المشتبه» لابن حجر (٣٣٠/١).

(٥) وهي منطقة مقابر تاريخية تقع في سطح المقطم بالقاهرة، واشتهرت بوجود أضرحة ومقامات للعلماء والأولياء.

(٦) انظر: «الضوء اللامع» (١٠٤/٢)، «النور السافر» (ص١٠٦، ١٦٥)، «شذرات الذهب» (١٦٩/١٠).

ثالثًا: الإقراءُ والتحديثُ

تصدَّى لإقراءِ الطلبةِ وعقدِ المجالسِ العلميَّةِ في إسماعِ الحديثِ وإقراءِ القرآنِ[١]، وكان هذا أغلبَ ما اشتغل به، وهذا يشهدُ لِما تقدَّم في تلاميذِه أنَّ اشتغالَه كان بالإقراءِ الخاصِّ والتأليفِ، لا بالتصدُّرِ للحِلَقِ العامَّةِ.

ومع ما بلغه من المنزلةِ فلم يُعرَفْ عنه تقلُّدُ منصبٍ رسميٍّ من قضاءٍ أو إفتاءٍ أو مشيخةٍ لمدرسةٍ سلطانيَّةٍ، ولا اشتغالٌ بوظائف إداريَّةٍ، فوظائفُه كلُّها علميَّةٌ محضةٌ: وعظٌ وإقراءٌ ومشيخةُ مقامٍ.

وفي ذلك ما يدلُّ على انصرافِه التامِّ إلى العلمِ والتصنيفِ، وهو موافقٌ لِما وُصف به من التقلُّلِ من لقاءِ الناسِ، ولِما تقدَّم من أنَّ أثرَه امتدَّ بمصنَّفاتِه أكثرَ ممّا امتدَّ بمجالسِه.

---

(١) انظر: «الضوء اللامع» (٢/١٠٤)، «البدر الطالع» (١/٧٠).

المَطْلَبُ الثَّامِنُ: مَذْهَبُهُ وَاعْتِقَادُهُ

أوَّلًا: مَذْهَبُهُ الفِقْهِيُّ

عُرِف القسطلانيُّ بانتسابِه في الفقهِ إلى المذهبِ الشافعيِّ، وبه وُصِف في كتبِ التراجمِ[١]، وقد اعتنى منذ صغرِه بكتبِ هذا المذهبِ؛ فقرأ ربعَ العباداتِ من «المنهاجِ» للنوويِّ، وبابَ البيعِ وغيرَه من «البهجةِ» على الشمسِ البامي[٢]، وقطعةً مِن «الحاوي» على البرهانِ العَجْلونيِّ، ومن أوَّلِ «حاشيةِ الجلالِ البكريِّ» على «المنهاجِ» إلى أثناءِ النكاحِ -بفوتٍ في أثنائِها- على مؤلِّفِها[٣].

ومع انتسابِه إلى المذهبِ فلم يكن منحصرًا فيه؛ فقد اختار في بعضِ المسائلِ ما ذهب إليه غيرُ الشافعيَّةِ، كاختيارِه مذهبَ مالكٍ في تفضيلِ المدينةِ النبويَّةِ على مكَّةَ[٤].

---

(١) انظر: «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (١٠٣/٢)، «البدر الطالع» (١٠٢/١).

(٢) البامي: لم أقف على ترجمته فيما بدا لي بعد البحث عنه، والله أعلم.

(٣) انظر: «الضوء اللامع» (١٠٣/٢).

(٤) انظر: «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» (١٢٩/١).

ثانيًا: اعْتِقَادُهُ

(أ) مذهبُه في الصفاتِ

لم يُصرِّح القسطلانيُّ بمذهبِه العَقَديّ تصريحًا مباشرًا في مقدِّمةِ كتابٍ ولا في ترجمةِ نفسِه، وإنما يُستدَلُّ على توجُّهِه العقدي باستقراءِ مواضعَ متفرِّقةٍ من كلامِه، وهي متفاوتةٌ؛ فسأسوقُها مرتَّبةً من الأقوى إلى الأضعفِ:

الموضعُ الأوَّلُ -وهو أقواها-: تأويلُه صفةَ الغضبِ.

قال في شرحِ حديثِ: «لَقِيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ»: «والغضبُ في المخلوقين: غليانُ دمِ القلبِ للانتقامِ، ولا يليقُ وصفُه بالخالقِ d ، والمرادُ هنا لازمُه، أي: فيعامله معاملةَ المغضوبِ عليه؛ فيعذِّبه».

ودلالتُه على مذهبِه من ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّه من إنشائِه لا نقلًا عن غيرِه؛ فليس في السياقِ عزوٌ لقائلٍ.

والثاني: أنَّ صيغتَه صيغةُ التأويلِ المعروفةِ عند الأشاعرةِ: نفيُ إرادةِ ظاهرِ الصفةِ، ثم صرفُها إلى لازمِها -وهو هنا العذابُ- دفعًا لما يُتوهَّمُ من التمثيلِ.

والثالث -وهو أهمُّها-: أنَّه ليس موضعًا عارضًا، بل جرى عليه فكرَّر تأويلَ الغضبِ بالعذابِ وأحال على تأويلِه الأوَّلِ. والاطِّرادُ يُثبتُ أنَّه اختيارٌ مقصودٌ.

وهذا التأويلُ مخالفٌ لمذهبِ السلفِ القائمِ على إثباتِ ما أثبته اللهُ لنفسِه وأثبته له رسولُه g من غيرِ تحريفٍ ولا تعطيلٍ ولا تكييفٍ ولا تمثيلٍ؛ فاللهُ سبحانه يغضبُ غضبًا يليقُ بجلالِه لا يُشبِهُ غضبَ المخلوقين، وقد أشبعَ الكلامَ في ردِّه شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ وتلميذُه ابنُ القيِّمِ[1].

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٤٥/٦)، «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص١٨٠).

الموضعُ الثاني: نفيُه المكانَ عن اللهِ تعالى.

علَّق على روايةِ «فراجِعْ ربَّك» في حديثِ الإسراءِ ومراجعةِ موسى عليه السلامُ في عددِ الصلواتِ بقولِه: «أي: إلى المحلِّ الذي ناجيتَه فيه، تعالى اللهُ عن المكانِ».

وهي زيادةٌ تفسيريَّةٌ من عندِه، وصياغتُها جاريةٌ على طريقةِ متأخِّري الأشاعرةِ في نفيِ الجهةِ والمكانِ عن البارِي تعالى مطلقًا.

الموضعُ الثالث: تفريقُه في الكلامِ بين المتلوِّ ومدلولِه.

عند شرحِه عبارةَ «وقولِ اللهِ» في مطلعِ «إرشادِ الساري»، تابع كلامَ القاضي عياضٍ في أنَّ كلامَ اللهِ لا يوصفُ بالكيفيَّةِ، ثم زاد من عندِه: «أو أن يُرادَ بكلامِ اللهِ المُنَزَّلُ المتلوُّ لا مدلولُه، وهو الصفةُ القائمةُ بذاتِ البارِي تعالى»[(١)]. وهو موافقٌ لتفريقِ الأشاعرةِ بين الكلامِ النفسيِّ القائمِ بالذاتِ وبين اللفظِ المتلوِّ الدالِّ عليه.

الموضعُ الرابع: تأويلُه الاستواءَ بالاستيلاءِ.

قال في «إرشادِ الساري» عند قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[الأعراف: ٥٤]: «**(ثمَّ استوى)** استولى **(على العرشِ)**»، أضاف الاستيلاءَ إلى العرشِ وإن كان سبحانه مستوليًا على جميعِ المخلوقاتِ؛ لأنَّ العرشَ أعظمُها وأعلاها»[(٢)]. وهو من أظهرِ معالمِ منهجِ المتأخِّرين من الأشاعرةِ في آياتِ الصفاتِ، إلا أنَّه أقربُ إلى تقريرِ معهودٍ متداولٍ بينهم منه إلى إنشاءٍ خاصٍّ.

---

(١) «إرشاد الساري» (٣٦٣/١).

(٢) «إرشاد الساري» (٣٦٧/٢٠).

الموضعُ الخامس: تعريفُه الوحيَ بـ«الكلامِ القديمِ».

عرَّف الوحيَ في «منهاج الإبتهاج» بأنَّه «سماعُ الكلامِ القديمِ بواسطةِ ملَكٍ...» ، ووصفُ كلامِ اللهِ بالقِدَمِ من مصطلحاتِ المتكلِّمين. ودلالتُه أضعفُ ممّا سبق؛ فإنَّه عرَّفه في «إرشادِ الساري» تعريفًا آخرَ خاليًا من هذا القيدِ فقال: «إعلامُ اللهِ تعالى أنبياءَه الشيءَ، إمّا بكتابٍ أو برسالةِ ملَكٍ أو منامٍ أو إلهامٍ»[1]؛ ممّا يُرجِّحُ أنَّ العبارةَ الأُولى منقولةٌ من مصدرٍ لم يُصرِّحْ به، فدلالتُها قائمةٌ من جهةِ إيرادِه لها بلا اعتراضٍ، لا من جهةِ كونِها صياغتَه.

الموضعُ السادس: ما اقتصر فيه على النقلِ المحضِ.

ومنه نقلُه عن الأُبّيّ في مسألةِ الرجوعِ إلى الذنبِ بعد التوبةِ قولَه: «وأصلُ الأشعريَّةِ أنَّ الرجوعَ إلى الذنبِ بعد التوبةِ منه لا يُبطلُ التوبةَ الأُولى»

ومنه نقلُه جوابَ شيخِه البرهانِ ابنِ أبي شريفٍ[2] في مسألةِ إطلاقِ لفظِ «خالقِ كلِّ شيءٍ»، وفيه: «فلا يتَّجهُ تكفيرُه ولا يُكفَّرُ مُكفِّرُه؛ لأنَّه متأوِّلٌ في تكفيرِه».

وهذانِ نقلان لم يتعقّب بالرد عليهما، فوافق نقله ما كان من إنشاء كلامه مما سبق ذكره.

والحاصلُ: أنَّ انتسابَ القسطلانيّ إلى مذهبِ الأشاعرةِ في الصفاتِ أمرٌ ظاهرٌ راجحٌ، دلَّ عليه الموضعانِ الأوَّلانِ دلالةً صريحةً؛ إذ صدرا من إنشائِه. وهو في ذلك جارٍ على ما كان سائدًا في المدارسِ والأوساطِ العلميَّةِ في عصرِه.

---

(١) «إرشاد الساري» (١/٣٦٢).

(٢) البرهانُ ابنُ أبي شريفٍ: هو إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ أبي بكرٍ المقدسيُّ الشافعيُّ، برهانُ الدِّينِ، ت (٩٢٣هـ).

المَطْلَبُ التَّاسِعُ: المَآخِذُ الَّتِي أُخِذَتْ عَلَيْهِ، وَالجَوَابُ عَنْهَا

أُخِذت على القسطلانيّ مآخذُ في جانبِ الاعتقادِ خاصة، وقد أُفردت لها دراساتٌ ومصنَّفاتٌ[١]، ولا ضير؛ فهو من النقدِ العلميّ الذي جرى عليه أهلُ العلمِ في تقويمِ أقوالِ بعضِهم بعضًا، ولا يُنقِصُ من قدره ولا من منزلةِ كتبِه.

أوَّلًا: أبرزُ ما أُخِذ عليه

مِن أظهرِ ذلك ما وقع في «المواهبِ اللدنيَّةِ» ممّا يتضمَّنُ القولَ بخلقِ العالمِ من روحِ النبيّ g ، إذ قال: «اعلمْ يا ذا العقلِ السليمِ... أنَّه لمّا تعلَّقت إرادةُ الحقّ تعالى بإيجادِ خلقِه؛ وتقديرِ رزقِه؛ أبرزَ الحقيقةَ المحمديَّةَ من الأنوارِ الصمديَّةِ في الحضرةِ الأحديَّةِ؛ ثم سلخَ منها العوالمَ كلَّها علوَّها وسفلَها... ثم انبجستْ منه ﷺ عيونُ الأرواحِ»[٢].

وقد نبَّه أهلُ العلمِ على أنَّ هذا الكلامَ لا يصحُّ نسبتُه إلى أصولِ الاعتقادِ المتلقَّاةِ عن الكتابِ والسنَّةِ، وأنَّه من مقتبساتِ الفلسفةِ وأقوالِ الغلاةِ من المتصوِّفةِ، لم يردْ به نصٌّ صحيحٌ، ولا نقله أحدٌ من أئمَّةِ الإسلامِ المعتمدين، وليس له أصلٌ في شيءٍ من كتبِ السنَّةِ المعتمدةِ[٣].

وأُخذ عليه كذلك الغلو في زيارة قبر النبي g حيث قال: «اعلم أن زيارة قبره الشريف من أعظم القربات، وأرجى الطاعات، والسبيل إلى أعلى الدرجات، ومن اعتقد غير هذا فقد انخلع من ربقة الإسلام، وخالف الله ورسوله وجماعة العلماء الأعلام»[٤]، وكذلك تأويله آية ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ

---

(١) من ذلك رسالةُ ماجستير بجامعة أمّ القرى سنة (١٤٣٢هـ) بعنوان «آراء القسطلاني العقدية في كتابه إرشاد الساري شرح صحيح البخاري - عرض ونقد»، للباحثة بدرية بنت إبراهيم الفارس، بإشراف د. سالم بن محمد القرني. وكتابُ «التنبيهات السنية على الهفوات العقدية في بعض الكتب العلمية» أ.د. محمد بن عبد الرحمن الخميس، وفيه فصلٌ بعنوان: «الهفوات في كتاب المواهب اللدنية للقسطلاني» (ص٢٣٥-٢٥٦)، و«منهج العلامة القسطلاني في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» أ. د. إبراهيم بن عبدالله المديهش.

(٢) «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (٣٩/١).

(٣) «التنبيهات السنية على الهفوات العقدية» (ص٢٣٥-٢٥٦)، «التصوف - المنشأ والمصدر» (ص٢٢٨).

(٤) «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (٥٨٧/٣).

وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾[النساء: ٦٤] وحملها وجوب زيارة قبره g مطلقًا[١] وكذا في مواضع أخرى[٢].

وأُخِذ عليه كذلك ما تقدَّم من تأويلِ الصفاتِ على طريقةِ الأشاعرةِ، كتأويلِ الغضبِ بالعذابِ، والاستواءِ بالاستيلاءِ

.

ثانيًا: الجوابُ عن ذلك

الجوابُ الأوَّلُ: أنَّ مصنَّفاتِه متفاوتةٌ، فلا يجري حُكم أحدها على جميعها.

ففي «المواهبِ اللدنيَّةِ»، وهو كتابٌ في السيرةِ والشمائلِ، مبناهُ على التوسُّعِ في مقامِ المدحِ والثناءِ، وفيه من العباراتِ الصوفيَّةِ ما ليس في غيرِه، فتوسع فيه رحمه الله، بخلاف غيره من المصنفات التي لم يتوسع فيها كإرشاد الساري.

الجوابُ الثاني: أنَّ ما وقع فيه من تأويلِ الصفاتِ جارٍعلى عُرفِ عصرِه.

تقدَّم أنَّ مذهبَ الأشاعرةِ كان هو السائدَ في المدارسِ والأوساطِ العلميَّةِ بمصرَ في ذلك العصرِ، فلم يكن اختيارُه في ذلك انفرادًا ولا استحداثًا؛ وهذا لا يُصحِّحُ القولَ ولا يُسَوِّغُه، لكنَّه يرفعُ عنه وصفَ التفرُّدِ، ويُنزِلُه منزلةَ من خُطِّئ من أهلِ العلمِ في مسائلَ اجتهد فيها فأخطأ.

الجوابُ الثالثُ: شهادةُ مَن ترجم له بحسنِ قصدِه وقبولِ عملِه.

قال نجمُ الدِّينِ الغزِّيُّ: «أوَّلُ دليلٍ على قبولِ أعمالِه وإخلاصِه في تأليفِه: عنايةُ الناسِ بكتابِه «المواهبِ اللدنيَّةِ»، ومغالاتُهم في ثمنِه مع قلَّةِ الرغباتِ، واللهُ سبحانه وتعالى أعلمُ»[٣].

فمَن ترجم له من أهلِ عصرِه ومن جاء بعدَهم مُجمِعون على إمامتِه وسَعةِ علمِه وحُسنِ قصدِه، وسيأتي ثناؤُهم عليه في موضعِه. وإنما وقعت هذه المآخذُ في مسائلَ معدودةٍ من جملةِ مصنَّفاتٍ واسعةٍ نافعةٍ، وليس أحدٌ

---

(١) «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (٣/٥٨٩).

(٢) «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية» (٤/٥٧٣).

(٣) «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» (١/١٢٩).

بعد المعصومِ g بمعصومٍ من الخطأِ.

ومع ذلك فالحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع، فلا يُقتدى به في هذه المواضعِ، ولا تُسوَّغُ متابعتُه فيها من أجلِ علمه وشهرته؛ بل يُصانُ عرضُه ويُبيَّنُ خطؤُه، ويُنبه عليه بما خالف عليه عقيدة أهل السنة والجماعة، ونسأل الله أن يعفو ويتجاوز عنه، وأن يجزيه بما قدم من خيرٍ لأمته خير الجزاء.

المَطْلَبُ العَاشِرُ: ثَنَاءُ العُلَمَاءِ عَلَيْهِ

نال القسطلانيُّ ثناءَ أهلِ العلمِ مِن جهاتٍ متعدِّدةٍ، تنوَّعت بين الثناءِ على علمِه، وخُلُقِه، وتصانيفِه، وحُسنِ إقرائِه؛ والنظرُ في كلِّ جهةٍ على حِدَتِها أجلى لصورتِه من سَرْدِ الأقوالِ مجتمعةً.

أوَّلًا: الثناءُ على علمِه وحفظِه

قال العَيدروسُ[(١)]: «كان إمامًا حافظًا متقنًا، جليلَ القدرِ، حسنَ التقريرِ والتحريرِ، لطيفَ الإشارةِ، بليغَ العبارةِ حسن الْجمع والتأليف لطيف التَّرْتِيب والترصيف كَانَ زِينَة أهل عصره ونقاوة ذَوي دهره وَلَا يقْدَح فِيهِ تحامل معاصريه عَلَيْهِ فَلَا زَالَت الأكابر على هَذَا فِي كل عصر»[(٢)]؛ فجمع له بين سَعةِ العلمِ والقدرةِ على تبليغِه، وهما وصفانِ لا يجتمعانِ لكلِّ عالمٍ.

وقال ابنُ العمادِ الحنبليُّ[(٣)]: «الإمامُ العلَّامةُ الحجَّةُ الرحلةُ الفقيهُ المقرئُ المسنِدُ»[(٤)]؛ فجمع له ستَّةَ أوصافٍ في عبارةٍ واحدةٍ: الإمامةَ، والعلمَ، والحجِّيَّةَ، وكونَه رحلةً يُقصَدُ، والفقهَ، والإقراءَ والإسنادَ. وقولُه «الرحلةُ» أخصُّها دلالةً؛ إذ لا يُوصفُ به إلا مَن صار مقصِدًا لطلبةِ العلمِ مِن الأقطارِ. وتابعه على هذه العبارةِ بنصِّها عبدُ الحيِّ الكتَّانيُّ[(٥)].

وقال نجمُ الدِّينِ الغزِّيُّ[(٦)]: «الشيخُ الإمامُ العلَّامةُ، الحجَّةُ، الرحلةُ، الفهَّامةُ، الفقيهُ النبيهُ، المقرئُ المجيدُ المسنِدُ المحدِّثُ»[(٧)].

---

(١) انظر ترجمته في: «ملحق البدر الطالع» (١٢٣/٢)، «معجم المؤلفين» (٢٨٨/٥).

(٢) «النور السافر عن أخبار القرن العاشر» (ص١٠٧).

(٣) انظر ترجمته في: «الأعلام» (٢٩٠/٣).

(٤) «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» (١٦٩/١٠).

(٥) «فهرس الفهارس» (٩٦٧/٢).

(٦) نجمُ الدِّينِ الغزِّيُّ: محمد بن محمد بن محمد الغزِّيّ العامريّ الدمشقيّ الشافعيّ (ت ١٠٦١هـ)، صاحبُ «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» انظر ترجمته: «الأعلام» (٦٣/٧).

(٧) «الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة» (١٢٨/١).

ثانيًا: الثناءُ على خُلُقِه وزهدِه

وأخصُّ ما في هذا البابِ شهادةُ شيخِه السخاويّ؛ فهو أدرى الناسِ بحالِه للزومِه إيَّاه، قال: «وهو كثيرُ الأسقامِ، قانعٌ متعفِّفٌ جيد القراءة للقرآن والحديث والخطاب شجي الصوت بها، مشاركٌ في الفضائلِ، متواضعٌ متودِّدٌ، لطيفُ العِشرةِ، سريعُ الحركةِ»[(١)]. فجمعت عبارتُه بين القناعةِ مع كثرةِ الأسقامِ، والتواضعِ في معاشرةِ الناسِ؛ وهي شهادةٌ جاءت ممَّن عايشه لا ممَّن سمع عنه.

وقال العلائيُّ[(٢)]: «كان فاضلًا محصِّلًا ديِّنًا عفيفًا، متقلِّلًا من عِشرةِ الناسِ إلا في المطالعةِ والتأليفِ والإقراءِ والعبادةِ».

وفي هذه العبارةِ زيادةٌ على ما قبلها؛ فإنَّها تكشفُ أنَّ تقلُّلَه لم يكن انقطاعًا عن الناسِ مطلقًا، وإنما كان تقلُّلًا موجَّهًا: ينصرفُ عن المخالطةِ ليتفرَّغَ للمطالعةِ والتأليفِ والإقراءِ والعبادةِ. وبهذا يُفسَّرُ ما تقدَّم في تلاميذِه من قلَّةِ من ذُكِر منهم مع غزارةِ تصانيفِه.

ومِن أبلغِ الشواهدِ العمليَّةِ على تواضعِه ما ذكره نجمُ الدِّينِ الغزِّيُّ من أنَّه «كان من أزهدِ الناسِ في الدنيا، وكان منقادًا إلى الحقِّ، مَن ردَّ له سهوًا أو غلطًا يزيدُ في محبَّتِه»[(٣)]؛ فقد ألَّف شرحَه على البخاريِّ قبل أن يؤلِّفَ القاضي زكريَّا شرحَه عليه، وكان يقولُ لتلميذِه الشعرانيِّ: «احضرْ عند شيخِ الإسلامِ شرحي، فمهما وجدتَه خالفني فيه فاكتبْه لي في ورقةٍ»، فكان الشعرانيُّ يكتبُ له ذلك ويُجهِّزُه إليه، وقال له مرَّةً: «لا تَغفلْ عن كتابةِ ما يُخالفُني فيه الشيخُ، فإنَّه لا يُحرِّرُ الكتابَ إلا الطلبةُ، ولا طلبةَ لي»[(٤)].

وهذا الموقفُ يجمعُ بين وصفين: التواضعِ العلميِّ -إذ طلب النقدَ على نفسِه ابتداءً- والأمانةِ العلميَّةِ، إذ أدرك أنَّ خلوَّه من حلقةِ طلبةٍ يُراجعون عملَه نقصٌ يسعى في تلافيه. وهو شاهدٌ آخرُ على ما تقدَّم في تلاميذِه.

---

(١) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (١٠٤/٢).

(٢) انظر ترجمته في: «الكواكب السائرة» (٧١/٢)، «الأعلام» (١٠/٧).

(٣) «الكواكب السائرة» (١٢٨/١).

(٤) «الكواكب السائرة» (١٢٨/١).

ثالثًا: الثناءُ على تصانيفه

وأثنى العَيدروسُ على صنعتِه التأليفيَّةِ بذاتِها -منفصلةً عن وصفِه بالحفظِ- فقال: إنَّه كان «حسنَ الجمعِ والتأليفِ، لطيفَ الترتيبِ والترصيفِ»؛ فخصَّ مهارتَه في الجمعِ -وهو تنظيمُ المادَّةِ المتفرِّقةِ- والترتيبِ، وهما وصفانِ يخصَّانِ الصنعةَ لا سَعةَ العلمِ.

ونحوُه قولُ الزِّرِكْليِّ: «مُكثِرٌ من التصنيفِ، حسنُ الأسلوبِ»[١].

رابعًا: الثناءُ على إقرائِه وصوتِه

شهد له شيخُه السخاويُّ بجودةِ أدائِه فقال: «جيِّدُ القراءةِ للقرآنِ والحديثِ والخَطابةِ، شَجِيُّ الصوتِ بها»[٢]؛ فلم يقتصرْ على وصفِ إتقانِ القراءةِ، بل وصف الصوتَ نفسَه بالشَّجا -أي حُسنِ التطريبِ والتأثيرِ في السامعِ-.

وأبلغُ منه شهادةُ تلميذِه الشعرانيِّ، قال: «كان من أحسنِ الناسِ وجهًا، طويلَ القامةِ، حسنَ الشيبِ، يقرأُ بالأربعَ عشرةَ روايةً، وكان صوتُه بالقرآنِ يُبكي القاسيَ، إذا قرأ في المحرابِ تساقط الناسُ من الخشوعِ والبكاءِ»[٣].

فهذا وصفٌ للأثرِ لا للصفةِ، وهو أقوى في بابِه.

---

(١) «الأعلام» (٢٣٢/١).

(٢) «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» (١٠٤/٢).

(٣) نقله عنه الغزِّيُّ في «الكواكب السائرة» (١٢٨/١).

ويشهدُ لهذا ما تقدَّم في تلاميذِه من أنَّ الأجهوريَّ والخُضَيريَّ تلوا عليه بالقراءاتِ الأربعَ عشرةَ؛ فتلاقت شهادةُ التلميذِ الواصفِ مع صنيعِ التلاميذِ المتلقِّينَ.

وبهذا يُفسَّرُ تصدُّرُه للوعظِ والإقراءِ في أكثرَ من موضعٍ كما تقدَّم؛ إذ اجتمع له إتقانُ الأداءِ وحُسنُ الصوتِ معًا.

وتلتقي هذه الشهاداتُ -على تنوُّعِ القائلين بها- في صورةٍ متكاملةٍ: عالمٌ حافظٌ متقنٌ، حسنُ الصنعةِ في التأليفِ والترتيبِ، زاهدٌ متواضعٌ منقادٌ للحقِّ، حسنُ الأداءِ والصوتِ.

وممّا يزيدُ هذه الشهاداتِ ثقلًا اجتماعُ طبقتين من الشاهدين: من عايشه وأخذ عنه -كشيخِه السخاويِّ وتلميذِه الشعرانيِّ- ومَن جاء بعدَه فحكم عليه بآثارِه -كالعَيدروسِ والغزِّيِّ وابنِ العمادِ-. فشهادةُ الأوَّلين شهادةُ معاينةٍ، وشهادةُ الآخرين شهادةُ أثرٍ، وباجتماعِهما تقومُ الحجَّةُ.

ولم يَخْلُ الأمرُ مع ذلك مِن تحامُلِ بعضِ معاصريه عليه، وقد نبَّه على ذلك العَيدروسُ فقال: «كان زينةَ أهلِ عصرِه، ونُقاوةَ ذوي دهرِه، لا يَقدَحُ فيه تحامُلُ معاصريه عليه»[1]. وفي المآخذِ ما يتَّصلُ بهذا.

(١) «النور السافر عن أخبار القرن العاشر» (ص: ١٠٧).

المَطْلَبُ الحَادِي عَشَرَ: وَفَاتُهُ

أوَّلًا: سببُ وفاتِه

عَرَض للقسطلانيّ في أواخرِ عمرِه الفالِجُ[١]، وكان سببُه -فيما ذُكِر- أنَّه بلغه خبرُ قطعِ رأسِ إبراهيمَ بنِ عطاءِ اللهِ المكّيّ صاحبِ السلطانِ الغُوريّ، فتأثَّر لذلك تأثُّرًا شديدًا حتى سقط عن دابَّتِه وأُغميَ عليه، فحُمِل إلى منزله، ثم تُوفِّي بعد أيَّامٍ[٢]. وفي هذا ما يكشفُ عن رقَّةِ قلبِه وشدَّةِ تأثُّرِه، وهو متَّسقٌ مع ما تقدَّم مِن وصفِه بلطفِ العِشرةِ والتودُّدِ.

ثانيًا: تاريخُ وفاتِه ومدفنُه

تُوفِّي r ليلةَ الجمعةِ، السابعَ من المحرَّمِ سنةَ ثلاثٍ وعشرين وتسعمائةٍ (٩٢٣هـ)[٣]، عن نحوِ اثنتين وسبعين سنةً[٤].وهي السنةُ التي انتهى فيها حكمُ المماليكِ بمصرَ، فكان عمرُه كلُّه في ظلِّ دولةٍ واحدةٍ من مولدِه إلى منتهاها. وصُلِّيَ عليه عقبَ صلاةِ الجمعةِ في الجامعِ الأزهرِ، ثم دُفِن بالمدرسةِ المجاورةِ لمنزله -المسماة بقبة قاضي القضاة بدر الدين العيني- بقربِ الأزهر[٥].

---

(١) الفالِجُ: وهو ذهاب الحس والحركة عن بعض أعضاءه -أشبه ما يكون بالشلل- «فقه اللغة وسر العربية» (ص: ١٠١).

(٢) انظر: «الكواكب السائرة» (١٢٩/١)، «شذرات الذهب» (١٧١/١٠)

(٣) انظر: «البدر الطالع» (١٠٣/١)، «شذرات الذهب» (١٦٩/١٠)، «الكواكب السائرة» (١٢٩/١)، «الأعلام» (٢٣٢/١).

(٤) بناءً على أنّ مولدَه سنة (٨٥١هـ).

(٥) «البدر الطالع» (١٠٣/١)، «الكواكب السائرة» (١٢٩/١)، وهي تقع في وقتنا خلف الجامع الأزهر، شارع محمد عبده بوسط مدينة القاهرة بمصر.

ثالثًا: أثرُوفاتِه

تأثَّر لموتِه خلقٌ كثيرٌ؛ لحُسنِ معاشرتِه وتواضعِه[١]، وهذا يزيدُ ما تقدَّم من ثناءِ العلماءِ عليه تأكيدًا؛ إذ انتقل الوصفُ من كونِه شهادةً نظريَّةً في حياتِه إلى أثرٍ ظاهرٍ في الناسِ عند وفاتِه.

ومِن أبلغِ الدلائلِ على امتدادِ شهرتِه خارجَ مصرَ أنَّه صُلِّيَ عليه صلاةَ الغائبِ بدمشقَ[٢]؛ فدلَّ ذلك على أنَّ خبرَ وفاتِه بلغ الشامَ في وقتٍ قريبٍ، وأنَّ منزلتَه لم تكنْ مقصورةً على أهلِ بلدِه.

فرحمه اللهُ رحمةً واسعةً، وجزاه عن العلمِ وأهلِه خيرَ الجزاءِ.

---

(١) «الكواكب السائرة» (١/١٢٩).

(٢) المصدر السابق.

الخاتمة

الحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تتمُّ الصالحاتُ، حمدًا يليقُ بجلالِ وجهِهِ وعظيمِ سلطانِهِ، حمدًا يوافي نِعَمَه ويُكافئ مزيدَه؛ فلهُ الحمدُ أوَّلًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا، ثمَّ الصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ، خيرِ من نطقَ بالحقِّ وبلَّغَ الرسالةَ، وعلى آلِهِ وصحبِهِ الذينَ حملوا هذا العلمَ من بعدِهِ فنقلوهُ أمانةً كما تلقَّوهُ، ثمَّ تتابعَ العلماءُ جيلًا بعدَ جيلٍ يحفظونَ هذا الميراثَ النبويَّ ويذودونَ عنهُ، فبفضلِ اللهِ ثمَّ بجهودِهم وصلت إلينا هذهِ التراجمُ والأخبارُ التي بُني عليها هذا البحثُ؛ فلهم منَّا الدعاءُ بأن يجزيَهم اللهُ عن العلمِ وأهلِهِ خيرَ الجزاءِ، وأن يُعلي درجاتِهم في المهديِّين، وأن يجعلَ ما بذلوهُ من عمرٍ وجهدٍ في خدمةِ هذا الدينِ في موازينِ حسناتِهم يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلا من أتى اللهَ بقلبٍ سليمٍ،

وإنَّ المتأمِّلَ في سِيَرِ هؤلاءِ الأعلامِ ليدركُ عِظَمَ ما بذلوهُ من أعمارٍ في طلبِ العلمِ ونشرِهِ، وما تحمَّلوهُ من رحلاتٍ ومشقَّاتٍ في سبيلِ إسنادٍ عالٍ أو فائدةٍ نادرةٍ؛ فكانوا رحمهمُ اللهُ مصابيحَ هدايةٍ لمن جاءَ بعدَهم، ، ويردَّ إليهم الجميلَ بحسنِ الدعاءِ والذكرِ الجميلِ، وصدقُ الاقتداءِ بهم إنَّما يكونُ بالمضيِّ على نهجِهم في التحرِّي والأمانةِ والإخلاصِ للهِ وحدَهُ في طلبِ العلمِ.

وبعدُ؛ فهذهِ أبرزُ النتائجِ التي انتهى إليها البحثُ موجزةً:

١) أنَّ القَسْطَلَّانيَّ عاشَ عمرَهُ كلَّهُ في ظلِّ دولةِ المماليكِ البُرجيَّةِ؛ من مولدِهِ سنةَ (٨٥١هـ) إلى وفاتِهِ سنةَ (٩٢٣هـ)، فكانَ نتاجَ عصرٍ اجتمعَ فيهِ الاضطرابُ السياسيُّ وازدهارُ التصنيفِ.

٢) أنَّ إسنادَهُ اتَّصلَ في الحديثِ بمدرسةِ الحافظِ ابنِ حجرٍ من طريقِ تلميذِهِ السخاويِّ، و اتَّصلَ في القراءاتِ بابنِ الجَزَريِّ من طريقِ شيخِهِ الحديديِّ.

٣) أنَّ أخذَهُ عن شيوخِهِ جرى على التوزُّعِ بحسبِ اختصاصِ كلِّ شيخٍ، وأنَّ فنونَ مصنَّفاتِهِ جاءتْ مطابقةً لفنونِ مَن أخذَ عنهم.

٤) أنَّ قلَّةَ مَن ذُكِرَ من تلاميذِهِ ليستْ نقصًا في قدرِهِ، بل أثرُ انصرافِ جهدِهِ إلى التأليفِ والإقراءِ الخاصِّ دونَ التصدُّرِ للحِلَقِ العامَّةِ.

٥) أنَّ وظائفَهُ كلَّها علميَّةٌ محضةٌ -وعظٌ و إقراءٌ ومشيخةُ مقامٍ-، لم يتقلَّدْ معها منصبًا رسميًّا من قضاءٍ أو إفتاءٍ.

٦) أنَّهُ شافعيُّ المذهبِ غيرُ منحصرٍ فيهِ، وأنَّ الراجحَ في اعتقادِهِ موافقتُهُ الأشاعرةَ في بابِ الصفاتِ، وهوَ جارٍ على ما كانَ سائدًا في المدارسِ العلميَّةِ بمصرَ في عصرِهِ.

٧) أنَّ المآخذَ عليهِ متفاوتةُ الرتبةِ، وأشدَّها إنَّما وقعَ في «المواهبِ اللدنيَّةِ»، وهذا لا يُسوِّغُ متابعتَهُ فيما أخطأَ فيهِ. ،،،وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعينَ.

فهرس الموضوعات

المقدمة ١
التَّعريفُ بالعلَّامةِ شِهابِ الدِّينِ القَسطَلَّانيّ ٢
المَطْلَبُ الأَوَّلُ: العَصْرُ الَّذِي عَاشَ فِيهِ القَسْطَلَّانِيُّ مِنَ النَّاحِيَةِ السِّيَاسِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ وَالعِلْمِيَّةِ، وَتَأَثُّرُهُ بِذَلِكَ ٣
المَطْلَبُ الثَّانِي: اسْمُهُ وَنَسَبُهُ وَلَقَبُهُ: ٥
المَطْلَبُ الثَّالِثُ: مَوْلِدُهُ، وَنَشْأَتُهُ، وَرِحْلَتُهُ: ٧
المَطْلَبُ الرَّابِعُ: شُيُوخُهُ. ٩
المَطْلَبُ الخَامِسُ: تَلَامِيذُهُ. : ١٤
المَطْلَبُ السَّادِسُ: مُؤَلَّفَاتُهُ: ١٨
المَطْلَبُ السَّابِعُ: مَنَاصِبُهُ ٢٤
المَطْلَبُ الثَّامِنُ: مَذْهَبُهُ وَاعْتِقَادُهُ. ٢٦
المَطْلَبُ التَّاسِعُ: المَآخِذُ الَّتِي أُخِذَتْ عَلَيْهِ، وَالجَوَابُ عَنْهَا: ٣٠
المَطْلَبُ العَاشِرُ: ثَنَاءُ العُلَمَاءِ عَلَيْهِ: ٣٣
المَطْلَبُ الحَادِي عَشَرَ: وَفَاتُهُ ٣٧
الخاتمة ٣٩
فهرس الموضوعات ٤٠
معلومات المشارك ٤١

معلومات المشارك:

صالح بن سليمان بن صالح العقيل.

الجنسية: سعودي.

الوظيفة: طالب ماجستير السُّنة وعلومها بجامعة القصيم، المملكة العربية السعودية.

بريد التواصل: saleV.alaqeel@gmail.com